سعى الرومانتيكيون في أعمالهم النظرية وفي ابداعهم الفني الى قنونه الانفصام الذي اشرنا اليه فعدوه تعبيرا عن طبيعة الفن ذاتها .

وقد بدا ذلك واضحا تماما في الرومانتيكية الألمانية الرجعية التي تؤكد نظريتها في الفن تأكيدا مستمرا شرعية الهروب من الواقع . وقد عبر أحد الرومانتيكيين الرجعيين الألمان عن ذلك تعبيرا فنيا صريحا عندما قال :

« لايروق لي أن تكون المقطوعة الشعرية مرتبطة بالعالم الواقعي . فمن أجل تجنب ظروف الواقع الظالمة يجب البحث عن ملجأ في مملكة الخيال » .

ولاقت نظرية « الفن للفن » صدا حاسما عند الرومانتيكيين التقدميين فخاضوا ضدها نضالا مستمرا مدافعين عن الفن المفيد اجتماعيا . ولكن الفكرة القائلة ان المثل الأعلى نقيض الواقع تبرز عندهم أيضا بوضوح كبير فجورج صاند مثلا ، ترى : « ان الفن ليس تصويرا للواقع الحقيقي ، بل هو بحث عن الحقيقة المثالية » .

وهيجو يصوغ هذه الفكرة على النحو التالي : « ان الروح الانسانية تحتاج في الوقت الحاضر الى المثل الأعلى اكثر من حاجتها الى الواقعية » .

« المثالي » ، « الجميل » ، « الكامل » كل ذلك في تصور الرومانتيكي جزء من عالم غامض لايمكن بلوغه ، وهو اما عالم الأعماق المجهولة في الروح الانسانية و « الأنا الأخلاقية » واما عالم الماضي السحيق الذي لايقل غموضا واغراء .

ان الهوة الواسعة بين المثل الأعلى والواقع التي رفعها الرومانتيكيون الى مرتبة المثل والمقياس تؤدي بالكاتب الرومانتيكي الى التخلي عن دراسة ظروف الحياة الاجتماعية دراسة عميقة ودقيقة ومعرفة القوانين الموضوعية التي تتحكم بهذه الحياة .

وهذا المبدأ يقف على طرفي نقيض مع الطريقة الواقعية ، طريقة بلزاك مثلا ، الذي يدهشنا في ابداعه اهتمامه المستمر بمعرفة قوانين حياة المجتمع البرجوازي معرفة دقيقة وعميقة . فقد عد بلزاك دراسة هذه القوانين واستخدام الوثائق والمستندات التاريخية استخداما واسعا لهذا الغرض ، مهمة من ابرز مهمات الكاتب .

ان تاريخية بلزاك العميقة صفة رائعة من صفات مذهبه الواقعي . وكل ظاهرة من ظواهر الواقع المعاصر لاتتكشف في رأي بلزاك ، الا من خلال معرفة تلك الظروف المعقدة التي أدت الى ظهورها بهذا الشكل الذي يراها فيه .